« أرواح شـــاردة »

تأليف الأستاذ الشاعر على محمود طه

بقلم الأديب محمد فهمى كمال

هذه « الأرواح الشاردة » فى تيه المرح والعذاب والحب، يحتفل بها شاعرنا على محمود طه فى كتابه الجديد احتفال الشاعر الهائم الذى تضطرب حياته فى خضم هذا الكون العظيم، حيث تتوارى المعالم وتتلاشى الآفاق وتغيب الشطئان. ولقد وسم نفسه فى عالم الأدب بالتيه والشرود، فهو « ملاح تائه » يهيم إلى « أرواح شاردة »، يجد لذته ومتعته فى شروده وهيامه، حتى لكأنه أحد أولئك الشعراء البوهيميين الذى كتب عنهم « هنرى برجير »، فهو ممن نلتمس عندهم غناء الروح ورى القلب فى البيان المصطفق والخيال المنطلق والنغم المتسق!

ومن رغم الأيام أن يصدر هذا الكتاب الجديد فى زمن تصطخب فيه الآذان وتضطرب الأذهان بأنباء أفظع مجزرة بشرية تمثلها روح الشر على مسرح الوجود، بل نحن فى محنتنا هذه أحوج ما نكون إلى أمثال هذه الكتب المتألقة بالذوق الجميل والفن الرفيع، أكثر من حاجتنا إلى كتب العلم والمعرفة والحكمة والفلسفة التى لو شئنا شيئاً منها لالتمسناه فى الكتب التى نقل عنها المؤلف أو تأثر بها، وفى غيرها مما لم ينقل عنه أو يتأثر به، ولكنا نحب هذا المزاج البديع من فن الشاعر الثائر على محمود طه الذى عشقناه وفتنا به فى قصائده الفرحة وغنائياته المرحة!!

فهذا الشارد الحائر بين معالم الجمال ومفاتنه فى مصر والبندقية وبرن وروما وفرساى وانسبروك، سعيد بأن يلتقى بجماعة من الشاردين الحائرين أمثال: ڤيرلين ورامبو وبودلير وشلى ودى ڤينى وموسيه وجورج سان وشو وويلز، ممن تناولهم بالدراسة، أو عرض لهم ولآثارهم عرضاً سريعاً

فأما بول ڤيرلين فحديثه ممتع، ألمّ فيه المؤلف بسيرة هذا الشاعر

الخيم على العقول والقلوب، ويدفع بها النفوس إلى المثل العليا

وهنا ألقيت نظرة على مصر، فإذا بمعركة الإصلاح خامدة، وإذا الروح المعنوية متخاذلة يعوزها القادة والخطة والجنود وقوة الإيمان، مع اتساع الميادين وفداحة الخطوب وعظم المشكلات وقلة الزاد ووعورة الطريق، تكتنفنا عوامل الانحلال التى تقربنا إلى الهوة بخطوات واسعة. وشعرت أننا نسير فى الظلام، وقد خبت الأضواء، واختفت مصابيح السماء، فصحت فى نفسى والألم يحزها: « أين كتابنا من هذا النضال؟ هل آثروا العزلة فى بروجهم العاجية، يشرفون علينا من عل، فيعبسون حيناً ويبتسمون أحياناً، ثم يقهقهون ملء أشداقهم، ثم يخلدون إلى متعتهم من الفن وروعة الخيال، ينفثون بها روحهم، ويستوحون منها فيض أقلامهم؟

ألم يقض هؤلاء الكتاب فترة من سنى حياتهم الناعمة فى قرى الريف، فتثور نفوسهم لمشاهدة الحياة فيها، فيستلوا أقلامهم ليخوضوها معركة حامية فى سبيل هؤلاء التعساء الذين ضن المترفون عليهم بقسط يسير من مقومات الحياة الإنسانية الكريمة؟ ألم يستشعروا ما يحيط بهم من مآسى الحياة المصرية؟ هل فكروا فى وجوه الإصلاح ونصيب الكتاب فى الدعوة إليه والنضال فى سبيله؟ لقد حباهم الله بخيال خصب وروح اجتماعى سام ينم عنهما ما تزخر به مؤلفاتهم وبحوثهم من شذرات وخواطر، فكيف السبيل إلى استغلال هذه المواهب فى توجيه قوى الخير لمكافحة عوامل الشر؟

يخيل إلى أن أدباءنا يتسمون بأنانية منقطعة النظير، هيأتهم لأن يعيشوا لأنفسهم، وأن يفكروا حين يفكرون، ويكتبوا حين تتحرك أقلامهم، لمتعة الروح وإرضاء الخيال، دون نظر لما تقتضيهم حقوق الوطن من التزامات تحتم عليهم أن يكونوا فى مركز القيادة، وأن يتولوا مهمة الإرشاد.

أين إنتاج أدبائنا مما توحى به الحرب، وما يتطلبه تنظيم الحياة الاجتماعية بعد الحرب؟ ألم يروا كيف نهض الكتاب فى البلاد الغربية يعالجون المشاكل الاجتماعية التى أوجدتها الحرب، والتى ستتمخض عنها الحرب عندما تخبو نارها، فاستخلصوا العبرة، ووصفوا العلة، ورسموا الطريق للمستقبل؟!

يجب أن يتغير وجه الحياة المصرية فى طرائق التفكير وأسس الثقافة ومعايير الإصلاح وروح التشريع، نتيجة لتلك الهزة العنيفة التى توشك أن تتداعى منها جوانب الحضارة القائمة، وأن يكون الكتاب قادة المعركة الإصلاحية التى تطالعنا كتائبها. فكانهم منها فى الطليعة، ولو عرضوا أنفسهم ليكونوا أول ضحاياها.

محمد العشماوى

نائب رئيس رابطة الاصلاح الاجتماعى

الذى كان أرخم صوت سدح به الشعر الفرنسى فى القرن الذى أنجب هيجو ولامارتين وموسيه وجوتيه وسنت بيف ومالارمى وليكونت دى ليل وأناتول فرانس وغيرهم من الأعلام والعباقرة الأفذاذ

ولقد تناول المؤلف فى حديثه هذا أصول الفن معوّلاً بالمصادر التى استمدت منها شاعرية فيرلين ألوانها الباهرة ، واستلهمت أنغامها الساحرة ؛ ثم تناول شخصية فيرلين بالاستقراء والتحليل ، هذه الشخصية التى قال أناتول فرانس فى صاحبها : « إنه سقراطىّ بالفطرة أو خيرٌ من ذلك ، مخلوق خرافىٌّ ، حيوان غابة ، نصفه إنسان ، ونصفه حيوان ، نصفه وحش ضار ، ونصفه إله ، هائلٌ كقوة طبيعية غير خاضعة لشريعة ما ... »

ولقد وفق المؤلف فى تفصيل ذلك كله وكان رائعاً ومتواضعاً فى ترجمته لقصيدة فيرلين فى الخريف ، بل إن أمانة النقل تبلغ فى هذه الترجمة مبلغاً عظيماً مع الاحتفاظ بالروح الغنائى المرح الذى يفيض به شعر فيرلين

وفى عشرات الكتب والدراسات التى وضعت عن فيرلين نجد للمؤلف قد ألمّ بالكثير من الآراء ، وقرّب هذه الشخصية العجيبة إلينا ، ولو أضاف إلى ما كتبه رأى « فرنسوا بوشيه » فى علاقة فيرلين برامبو لانتهى إلى الحقيقة ولما قال إنها لا تزال موضع تحقيق النقاد والمؤرخين

أما بودلير فقد عرض المؤلف لفنه والعوامل الموضوعية والذاتية فى شاعريته أكثر مما عرض لسيرة حياته ، وإن كان لم يهمل ما رآه متصلاً أوثق الاتصال ببحثه القيم النفيس ، فقد تناول جانباً من حياة هذا الشاعر يلقى ضوءاً على المؤثرات التى عملت عملها فى شذوذه وغرابة طباعه وأطواره وحماسته فى عبادة شهواته ، وكان حديثه رائعاً عن نشأة بودلير ورحلته إلى جزائر الهند ، وعن أوكار الحشيش والأفيون ، وهذه الأجساد التى تنضح بشهواتها وتسترق أنفاسها من دخان العطور الشرقية المخدرة ؛ كما كان حديثه بليغاً وبديعاً عن هذه الفتاة السوداء التى نصبها بودلير إلهةً للجمال بجسدها المثقل السقيم الذى يملأ الكلف أو البقع أديمه وهو يتخلع فى ثوب مهلهل خلق ...

ومن الحق أن نسجل فى هذا الفصل الأستاذ المؤلف قوته البيانية وطلاقته الفنية وحرارة تعبيره وإن كنا نأخذ عليه الإيجاز فى محاكمة بودلير مع أنه عرض لها أكثر من مرة فى فصله هذا مما يدلنا على إلمامه بدقائق هذه المحاكمة وخاصة عند ما نوه بزعيم الإبداعيين ڤيكتور هيجو ودفاعه عن بودلير كفنان ، وقد كان على المؤلف أن يُشبعَ الموضوع بتفاصيل هذا الدفاع

أما الكلمة التى نقلها المترجم عن الكاتبة « ريبكا » فى الأدب الإنجليزى الحديث فهى من أدق وأوفى الدراسات التى كتبتها هذه الأديبة العظيمة فقد اشتغلت بالتأليف الأدبى مدى ثلاثين عاماً ، وحسبنا هذا ثقة بآرائها فى الأدب المعاصر

وقد وفق على محمود طه فى ترجمة قصيدة شلى ودى ڤينى وقصائد ماسفيلد وسيتول و « ڤنست ملاى » توفيقاً عظيماً وخاصة — فى الثلاث قصائد الأخيرة فإنه يبلغ الذروة فى الدقة والرقة والقوة

أما قصيدته فى قبرة شلى فقد جمعت كل ما سكبه قلب الشاعر الإنجليزى العظيم من الحلاوة والحرارة والصفاء وكل ما جادت به شاعرية المترجم من فنون التصوير والغناء وسعة الخيال وحسن الأداء ، ولقد قدم المترجم لقصيدتى شلى ودى ڤينى بكلمتين عن الشاعرين ولم يصنع ذلك فى بقية القصائد ، ولو كان صنع ذلك لحمدنا له صنعه

وما أحسب أن الملاح التائه قد أهمل عن عمد تعريفنا بملاح غير تائه هو جون ماسفيلد شاعر العرش البريطانى الذى بدأ حياته ملاحاً صغيراً يعمل فى البحر وهو فى الرابعة عشرة من عمره

أما القسم الأخير من كتاب أرواح شاردة ، فأنا شديد الإعجاب به ، مفتون بالصور التى رسمها المؤلف لرحلاته فى أوربا ، مشغوف بالحوار الذى أجراه على محمود طه على ألسنة الأشخاص الذين التقى بهم فى طريقه ؛ فليست هذه المقالات مجرد وصف وتزويق من الخيال ، بل هى ظلال وأضواء من الفن والعلم والأدب محتفلة بالرشاقة والعذوبة وخفة الروح ، ممثلة لهذه العناصر أبدع تمثيل ، كأفذر كتاب الأقصوصة ، حتى لتشيع فينا ألواناً من الطرب الروحى ساعة من زمن أو لحظة من وقت كما يُشيع إشراق الكأس المترعة طربَ الشرب وصرح الندمان ؛ وحبذا لو أتحفنا على محمود طه بكتاب يفرده لهذه الذكريات مضيفاً إليها ما أظنه لم يجد وقتاً لكتابته أو بالنسبة لحجم كتابه « أرواح شاردة »

أما القصيدة التى ختم بها المؤلف كتابه والتى أنشأها فى محنة باريس وطلعت بها (مجلة الرسالة) على العالم العربى ، فهى مثال من الحسرة والعبرة التى عرفناها فى شعر شوقى فى مثل هذه المناسبات !

فليهنأ عالم الأدب بملاحنا التائه ، وليهنأ هو بأرواحه الشاردة

محمد لطفى كمال

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)